الفعـل التّرجمـيّ والسّيميائيّـة

محمّـد تحريشـي

جامعـة بشّـار - الجزائر

كان للفعل الترجمي دور بارز في وصول السيميائية إلى البلدان العربية ، وإن كنا لا نعدم الاتصال المباشر للسيميائيين العرب بالسيميائيين الغربيين في أوطانهم، واقتضى هذا الفعل امتلاك لغتين على الأقل لغة النصوص الأصلية واللغة المترجم إليها، وفي هذه الحال، لا بد من إتقان الفروق الدلالية والجمالية والحمولات المعرفية لكل من اللغتين.

إن ترجمة كتاب "تاريخ السيميائية" لـ"آن إينو"، والتي اضطلع بها المترجم "رشيد بن مالك" تكشف عن ذلك التقاطع المعرفي عبر نقل هذا الكتاب من الفرنسية إلى العربية بمستويات لغوية تمكن القارئ العربي من فك شفرات النص وتتبع مسار السيميائية تاريخيا والوقوف عند أقطابها وأعلامها وحقولها المعرفية.

يتوجه الكتاب إلى قراء لهم معرفة بموضوع الكتاب سواء ما تعلق باللسانيات أو ما تعلق بالسيميائية؛ فكثيرة هي الإحالات إلى مصادر

مهمة تستدعي أن يكون القارئ على علم بما جاء فيها، أو يكون ملما بالبحث اللساني والبحث السيميائي على العموم. إن كتاب تاريخ السيميائية وإن كان موجها إلى عموم القراء، فإنه يشترط معرفة وعلما لأنه لا يتوجه إلى العامة ولا يتوجه إلى الخاصة، إنه كتاب يقصد إلى خاصة العامة وعامة الخاصة.

إن ترجمة كتاب تاريخ السيميائية أمر مرغوب فيه، ولكن السؤال المطروح كيف لهذه الترجمة أن تؤدي دورها مع وجود فارق معرفي بين المتلقي الأصل (فرنسي) والمتلقي الفرع (عربي)، فقد تمثل المعارف والحقائق العلمية التي احتواها الكتاب تراثا وتاريخا، يدخل ضمن ما يعرف بتاريخ العلوم، وفي الوقت ذاته تتصف هذه المعارف بكونها فتحا جديدا عند القارئ العربي، وإذا كان الأمر كذلك فإلى أي حد تكون المعلومة تراثا وفي الوقت ذاته معرفة جديدة ؟ وكيف سيتعامل معها القارئ العربي بوصفها معارف إنسانية ؟ أو بوصفها مجموعة من المعلومات التي جاءت لتزكي تجربة في الكتابة وتجربة في الترجمة وتجربة في السيميائية ؟

تطرح هذه الترجمة عامل الزمن مقياسا مهما في درجة التلقي؛ فقد طبع الكتاب في نسخته الفرنسية سنة 1992، ولا شك أنه يمثل تجربة عميقة في تتبع الجهد السيميائي لسنوات، ثم أخذت ترجمته مدة زمنية؛ فليس من السهل ترجمة عمل كهذا في ظرف قياسي، وانتهت الترجمة سنة 2003 بتوقيع المترجم، وطبعت الترجمة سنة 2004. فنحن أمام أكثر من عشرية بين صدور الكتاب وترجمته، فكيف للقارئ العربي ملاحقة المعلومات والمعارف مع وجود هذا الفارق الزمني، والذنب ليس ذنب المترجم؛ وإنما ذنب غياب المؤسسة المفترض وجودها لتقوم بدور المحفز على النقلة الحضارية والتبادل الفكري والتفاعل المعرفي

بين الأمم والشعوب. إن الفعل الترجمي هو ممارسة مؤسساتية لتحقق التراكم المعرفي عبر استراتيجية تقوم على الاستفادة من الخبرات والتجارب وتعدد الثقافات والمرجعيات وتقاليد الكتابة والتأليف. يقول المترجم : "جاءت هذه الترجمة نتيجة للقاء جمعني بالباحثة آن إينو بباريس يوم : 20 - 1 - 2002. وقد كان هذا اللقاء مثيرا كما أشارت إلى ذلك في نهاية الجلسة، حدثتني عن أمور كثيرة عن صمودها، وعن قناعتها العلمية الراسخة، ولقاءاتها بطه حسين، نجيب محفوظ، يوسف إدريس، توفيق الحكيم، والساعات الأخيرة من حياة أ. ج. غريماس ..."، ويمكن لنا ها هنا أن نركز على اللقاء العلمي والمعرفي بين المؤلفة والمترجم في المقام الأول، ثم على لقاء المؤلفة ببعض رموز الثقافة العربية من جهة، ولقائها بغريماس من جهة أخرى في المقام الثاني. تم اللقاء، على الرغم من البعد الزمني؛ ولننظر إلى الأمر من زاوية أخرى : المؤلفة (غربية) ⟸ المترجم (عربي)، المؤلفة (غربية) ⟸ المثقفون (عرب)، المؤلفة ⟸ غريماس؛ ومن ثم فإن لهذا التقاطع المعرفي والحضاري أبعادًا سيميائية تدل على أن الحضارات تبنى بالتراكم.

واقتضت منهجية الترجمة الأخذ بالتحري العلمي الجماعي، وهذا لقاء آخر بين المؤلفة والمترجم ومساعديه (عبد القادر بوزيدة، عبد الحميد بورايو) مبني على الحوار المتواصل حول مختلف قضايا الترجمة التي يطرحها الكتاب موضوع الترجمة، "تنهض هذه الخطة في المقام الأول على محاورة الباحثة آن إينو في كثير من المسائل ذات الارتباط الوثيق بالفكر السيميائي المعاصر وأهم توجهاته الراهنة من بداية السبعينات إلى يومنا هذا والإشكالات المصطلحية المتصلة مباشرة بالكتاب ..."[1] ومن ثم تم الاهتمام بالسياق المعرفي للفكر السيميائي حتى يتم الوقوف

اللغوي والدلالي l'équivalent linguistique et sémantique، وفي كثير من الأحيان يساعدنا السياق في الوصول إلى معاني التراكيب والعبارات؛ فالكلمات لا تحيا إلا بالاستعمال l'usage.

قامت الخطّة في المقام الثاني على إنجاز المرحلة الثانية؛ يقول المترجم : "وبعد أن انتهينا من المرحلة الأولى، أعدت صياغة البحث من جديد وفي ضوء الملاحظات المسجلة في أثناء اللقاءات العديدة التي جمعتنا، سلمت البحث المترجم لصديقي الأستاذ بوزيدة عبد القادر الذي تجشم عناء قراءة، ومراجعة النسختين الفرنسية والعربية ..." ليكون جهدا جماعيا وتحريا يكمل بعضه بعضا، ومع ذلك نجد أنفسنا أمام كلمات لا نعرف هل المقصود منها المعنى أو الدلالة (صياغة البحث، سلمت البحث المترجم) فلا نعرف هل نحن أمام بحث في تاريخ السيميائية أو أننا بصدد ترجمة كتاب ؟ ومن هنا تصبح الترجمة ممارسة شاقة ومعاناة بين البحث الترجمي والفعل الترجمي، ثم إن المترجم يحدد عمل مساعده بقوله : (قراءة ومراجعة) فيقع السؤال هل هذا بناء عربي، وهل أن القراءة والمراجعة تحصلان في الوقت ذاته أو على التوالي، وأعتقد أن قراءة النص تتم أولا ثم تحصل مراجعته من بعد، ويبدو أننا نصادف الكثير من العبارات التي تم فيها عطف على المضاف قبل ذكر المضاف إليه.

كان المترجم حريصا على نسب الفضل إلى أصحابه وخاصة إلى الأستاذ بوزيدة الذي : "بذل مجهودا كبيرا نلمسه في تتبعه النص المترجم والنسخة الأصلية كلمة كلمة، سطرا سطرا، فقرة فقرة حتى نهاية الكتاب، وفي أثناء ذلك قد يقترح ترجمة مصطلح، أو يناقش فكرة ... تثير بعض الالتباس عند القارئ ..."[2] إن عمل المُراجع مهم جدا إذ كثيرا ما تواجه الترجمة مسألة الغموض والالتباس ambiguïté في النص لارتباطه

بالحمولة الدلالية وبالسياقات المتعددة. إن الترجمة مكابدة متواصلة وجهد مضني ومعاناة كبيرة تتقلص كلما ازدادت معرفة المترجم بالنص إلى درجة تصبح هذه المعرفة متجاوزة.

اشتمل الكتاب على مقدمة المؤلفة ومقدمة المترجم ومقدمة الكتاب، و قسم الكتاب إلى قسمين؛ اشتمل القسم الأول "سوسير و السيميولوجيا" على ثلاثة فصول؛ كان الأول منها موسوما بـ"مضايقات معقدة" فتناول سوسير نموذجا : المأساة الخفية لحياة متقشفة (1857 ـ 1913)، وسوسير الظاهرة، وخصص الفصل الثاني للحديث عن المشروع العلمي، والفصل الثالث للتفرد اللّساني، وختم هذا القسم بيبليوغرافيا.

ووسم القسم الثاني بـ: من اللساني إلى السيميولساني، تناولت الكاتبة في الفصل الأول منه : لوي هيالمسالف (1895 ـ 1965) أو الطريقة في التجسيد بالتجريد، لتتحدث عن سوسير وتابعه، ومنظر التوفيقات الدلالية وجبر اللسان. إن هذه الجزئيات لا توجد في فهرس النسخة الأصلية ، ومن ثم يطرح السؤال لماذا لم يكن فهرس هذه النسخة مفصلا أو مطابقا لما جاء في المتن ؟ ولماذا فضّل المترجم أن يميل في ترجمة بعض العناوين إلى الترجمة بالمعنى؛ من ذلك le continuateur de saussure ترجم إلى سوسير وتابعه. يشير العنوان الأول إلى المقصود هو لوي هيالمسلف، في حين أن المقابل العربي يوحي بأن الحديث سيكون عن سوسير وهيالمسالف وفرق بين الأمرين. إن الترجمة هي مجموعة من الاختيارات والاحتمالات، وما على المترجم إلا أن يلتزم بما يراه مناسبا، ومع ذلك فإلى أي حد يستطيع المترجم أن يتصرف بين وضع المقابل اللغوي l'équivalent linguistique أو الترجمة بالمعنى ؟

• المرجعيّة والتّرجمة

يطرح كتاب "تاريخ السيميائية" إشكالا لقراءته وترجمته وتلقيه تتعلق بمرجعية الكتاب ومرجعية الترجمة ومرجعية المتلقي، ومن ثم فإننا نصادف ذلك الكم الهائل من المراجع والكتب التي تختزل التجربة السيميائية في الفكر الإنساني مما يقتضي معرفة بالجهد اللساني في مساره التاريخي سواء ما تعلق بالمعرفة العامة المشتركة بين المشتغلين بالحقل اللساني والسيميائي، أو ما تعلق بالمعرفة التخصصية الدقيقة التي قد تحتاج إلى نوع من التوثيق والمراجعة حتى تستقر المعلومة بالذهن ويتم التلقي والإدراك. إن المؤلفة عمدت إلى توظيف ثقافتها السيميائية في التأسيس للمعارف وبسطها للمعلومات "... و لئن كانت الشهادات المتنوعة و الصادرة بوجه خاص عن فنانين و كتاب (بما في ذلك Regards sur le passé لكاندينسكي و C'est moi qui souligne لبيربيروفا غريزة، فإنها تسمح لنا بالإحساس بما كانت عليه الحماسة الفكرية والغليان المفهومي والتغيير الجذري لرؤية العالم والتأجج الخيالي، للعاصمتين الروسيتين. من هنا، نلقى النفس الخاص الذي سرى في المشروع الشكلاني في الثلث الأول من القرن العشرين إلى أن سحق هؤلاء المفكرون والمبدعون من قبل "الكانوسا الإيديولوجية" على حد تعبير واحد من الممثلين لهذه التصفية، ج. جورباتشاف ... في المؤتمر الأول للكتاب السوفييت في 1934 كانت المناقشات مرفوضة وإدانة الشكلانية والحداثة (وكذا الفرويدية) قضية مسموعة"[3].

يطرح هذا النص عددا من المعلومات تستوجب من القارئ معرفة حتى يتم التواصل بينه وبين الكتاب، الذي اعتصرت فيه المؤلفة التجربة السيميائية للمجهود الإنساني عبر عصور طويلة، واقتضت الضرورة أن

تعود المؤلفة إلى عدد كبير من مصادر السيميائية، وأن يعود المترجم وكذا المراجعان إليها على سبيل الفهم والاستيضاح والتوثيق. إن كتاب تاريخ السيميائية كتاب موجه لمن له معرفة بالسيميائية وبأعلامها وبتوجهاتها العامة؛ ذلك أن المؤلفة اعتمدت على الإشارة إلى مصادرها ومراجعها باقتضاب واقتطاع واختيار للمعلومة من دون تفصيل أو بسط مستفيض.

• ملاحظـات

1- عدم احترام المنهجية في التعامل مع المصادر والمراجع التي وظفتها آن إينو؛ فقد تترجم هذه المراجع إلى العربية وقد ترسم بحروف لاتينية، وتذكر باللغتين.

2- الإخراج الفني والأخطاء الطباعية : يلاحظ على الكتاب المترجم كثيرا من الأخطاء الطباعية، وضعفا في الإخراج يمكن تفاديه إذا أعيد طبع الكتاب.

3- بعض التراكيب جاءت أبنية تحتاج إلى المراجعة كعطف المضاف النكرة على المضاف النكرة قبل ذكر المضاف إليه.

4- صعوبة توليد المصطلحات العربية المكافئة للمصطلحات الفرنسية لاختلاف البنية اللغوية، أو لعدم وجود المصطلح أصلا في اللغة العربية فيُعتمد على القياس أو على الاشتقاق أو على النحت.

الإحالات

(1)- تاريخ السّيميائيّة، ص 9.

(2)- تاريخ السّيميائيّة، ص 9.

(3)- تاريخ السّيميائيّة، ص 89.